غـزوة مُؤْتَـة

في جمادى الأولى سنة ٨ هـ

تُعد غزوة مؤتة من أعظم المعارك التي خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، ومُـؤْتَة قـرية من أرض البلقـاء من الشـام بينهـا وبين بيت المقـدس مرحلتان.

سبب الغزوة:

وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله ﷺ بَعَثَ الحارث بن عُمَير الأزْدي أحدَ بنى لِهْب، بكتابه إلى الشام على ملك الروم أو بصرى.

فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسَّانى - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر - فأوثَقَه رباطًا، ثم قدَّمَهُ فضرب عُنُقَه، ولم يُقْتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره.

فاشتدَّ ذلك عليه حين بلغه الخَبَرُ، فجهز جيشاً في ثلاثة آلاف رجل، وبعثه إلى مؤتة.

الرسول ﷺ يُعيِّن أمراء للجيش:

روى البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ الله عَنْهمَا - قال:

«أَمَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى، وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بِضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمْيَةٍ»(١).

(١) البخاري - كتاب المغازي، حديث رقم ٣٩٢٨.

النبي ﷺ يودع الجيش ويوصيه:

وخرج رسول الله ﷺ يودع الجيش ويوصيه، فكان مما قاله لهم:

«اغزُوا باسم الله، قاتِلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً»

وخرج أهل المدينة يُودعون جيش رسول الله ﷺ فبكى عبدُ الله بن رواحة. فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حُبُّ الدنيا، ولا صبابةٌ بكم، ولكنّى سمعت رسول الله ﷺ يقرأُ آيةً من كتاب الله يَذْكر فيها النار: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾(١) فَلَسْتُ أدرى كيف لي بالصَدَّر بعد الوُرود؟

فقال المسلمون: صحبكم الله بالسَّلامة، ودفعَ عنكم، وردَّكم إلينا صالحين. ثم مضوا حتى نزلوا «معانٍ»

توقُّف الجيش الإسلامي للاستشارة:

وفي أثناء سير الجيش، بلغ الناسَ أن هِرَقْلَ بالبلقاء في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم - من لخَم وجذام وبلْقين وبَهْراء وبَلَى - مئة ألف.

فلما بلغ ذلك المسلمين، أقاموا على مَعَانٍ ليلتين، ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبرَه بعدد عدوِّنا، فإمَّا أن يُمِدَّنا بالرجال، وإمَّا أن يأمرنَا بأمره، فنمضي له.

فشجَّع الناسَ عبدُ الله بن رواحة قائلاً:

يا قوم، والله إن الذي تكرهون للَّتي خرجتُم تطلبون «الشهادة» وما نُقاتل الناسَ بعدد ولا قُوَّة ولا كثرة، ما نقاتلُهم إلاَّ بهذا الدِّين الذي أكرَمَنَا به الله، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحُسنَيَيْن: إما ظفرٌ وإما شهادة.

---

(١) مريم: ٧١.

بدء القتال وتناوب القُوَّاد:

فمضى الناس، حتى إذا كانوا بتُخُوم[1] البلقاء، لقيتهم الجموعُ بقرية يُقال لها: مَشَارف، فدنا العدوُّ، وانحاز المسلمون إلى مُؤْتَة، فالتقى الناس عندها، فَتَعبَّى المسلمون، ثم اقتتلوا والرَّاية في يد زيد بن حارثة، فلم يزل يُقَاتل بها حتى شَاطَ في رِمَاحِ القوم، وخَرَّ صَريعاً.

وأخذها جعفرُ، فقاتَل بها حتى أَرْهَقَهُ القتالُ، اقتحم عن فرسه، فعَقَرَهَا، ثم قاتَل حتى قُتِل، فكان جعْفَرُ أوَّل من عَقَرَ فَرَسَهُ في الإسلام عند القتال.

فقطعت يمينُه، فأخذ الرَّايةَ بيساره، فقُطِعَتْ يسارُه، فاحتضَنَ الرَّايةَ حتى قُتِلَ، وله ثلاثٌ وثلاثون سَنَة.

ثم أخذها عبدُ الله بن رواحة، وتقدَّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزلُ نفسَه، ويتردد بعض التردُّد، يقول محدثاً نفسه:

أقسمتُ بالله لتنزلنَّه ... كارهة أو لتطاوعنَّه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... مالي أراك تكرهين الجنة؟

ويقول:

يا نفسُ إلاَّ تُقْتلي تموتي ... هذا حِمام الموتِ قد صَلِيت

وما تمنَّيت فقد أُعْطيت ... إن تفعلي فِعْلَهما هُديت

يريد صاحبَيه: زيداً وجعفرًا.

ثم نزل، فأتاه ابنُ عمٍّ له بعَرق من لحم، فقال: شُدَّ بها صُلْبَك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت.

---

(١) التخوم: جمع «التَّخْم» وهو منتهى كل قَرْية أو أرض.

فأخذها من يده، فانْتَهَسَ منها نَهْسَةً، ثم سمع الحَطْمة في ناحية الناس فقال: وأنتَ في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفَه وتقدَّم، فقاتَل حتى قُتِل

الراية إلى سيف من سيوف الله:

ثم أخذ الرَّايةَ «ثابتُ بن أقْرَم» أخو بنى عجلان، فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلمَّا أخذ الرَّايةَ، دافع القومَ، وحاش بهم، ثُمَّ انحاز بالمسلمين، وانصرف الناس.

قال ابن هشام: فأمَّا الزهري فقال - فيما بلغني عنه -: أمَّر المسلمون عليهم خالدَ بن الوليد، ففتح الله عليهم، وكان عليهم حتَّى قَفَلَ إلى النبي ﷺ.

وقد ذكر ابنُ سعد أن الهزيمة كانت على المسلمين، والذي في صحيح البخاري أن الهزيمة كانت على الروم.

الرسول ﷺ يُخبِر بسير المعركة:

ويتلقى الرسول ﷺ من وحي السماء أخبار المعركة، ويُبَلِّغ المؤمنين؛ ليكونوا دائمًا - وهم يَسْعَوْن في سبيل الله - موصولين بوحي السماء.

قال ﷺ لأصحابه: «لقد رُفِعُوا إليَّ في الجنَّة - فيما يرى النائم - على سُرُرٍ من ذهب، فرأيتُ في سرير عبدَ الله بن رواحة ازْوِرَاراً عن سرير صاحبيه، فقُلتُ: عَمَّ هذا؟ فقيل لي: مَضَيَا وتردَّد عبدالله بعض التردُّد ثُمَّ مضى».

وقَدِم يعْلَى بن منْية على رسول الله ﷺ بخبر أهل مُؤْتَة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت فأخبرني، وإن شئت أخبرتُك» قال: أخبرني يا رسول الله، فأخبره ﷺ خبرَهم كُلَّه، ووصفهم له. فقال: والذي بعثك بالحق، ما تركْتَ من حديثهم حرفًا واحداً لم تذكره، وإن أمرهم لكَمَا ذكرتَ.

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله رفع لِيَ الأرضَ حتى رأيتُ معتركَهم».

obeikandl.com

عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة:

قال ابن إسحاق:

حدثني محمدُ بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، قال: لما دَنَوْا من حول المدينة، تلَّقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، قال: ولقيهم الصبيان يشتدُّون، ورسول الله ﷺ مُقبلٌ مع القوم على دابة. فقال: «خُذوا الصبيان فاحملوهم، وأعْطُوني ابنَ جعفر» فأُتى بعبدالله، فأخذه فحمله بين يديه.

قال: وجعل الناس يَحْثُون على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرَّار، فَرَرْتُم في سبيل الله. قال: فيقول رسولُ الله ﷺ: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّارُ إن شاء الله».

*****

ولنَا وَقْفَةٌ هُنا ونحن نتحدث عن وقائع المدينة المُنَوَّرَة، ونرى الأطفال يُشْغلون بما يُشغَل به الكبار، ولا يَرْضَون أن ينسبوا إلاَّ إلى نَصْرٍ عزيز، مع أنَّ ما تمَّ كان نَصْراً إذا ما تدبَّرنا أنَّ الروم قد جمعوا مئة ألف، وانضم إليهم من القبائل مئة ألف أخرى، وعدد المسلمين - كما عرفنا - ثلاثة آلاف، فكان من إلهام الله لخالد بن الوليد - وهو مَنْ هُو في قيادته وحكمته - أن جعل الانسحاب ليس فراراً، وإنما جعله - بحُسْن التدبير - نَصْراً.

ولذلك دافع الرسولُ ﷺ عن الجيش حين سمع الناسَ يقولون لهم - وهم يَحْثُون عليهم التراب -: «يا فُرَّار، فَررتم في سبيل الله» قالوا لهم ذلك وهم يستقبلونهم!

فقال الرسول ﷺ: ليسوا بالفُرَّار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله.

فالمدينة كُلُّها - إذاً - لا تُشْغَل عنهم، بل نراها - بسلُوك مَنْ فيها - مُرابِطَةً معهم، تذكرهم، وتتلقَّى أخبارَهم، وتدعو لهم.

حُزن الرسول ﷺ على قتل أمراء الجيش:

عن عَائِشَةَ - رَضِي اللَّه عَنْهَا - قَالَتْ: «لَمَّا جَاءَ النَّبِيَّ ﷺ قَتْلُ ابْنِ حَارِثَةَ وَجَعْفَرٍ وَابْنِ رَوَاحَةَ، جَلَسَ يُعْرَفُ فِيهِ الحُزْنُ، وَأَنَا أَنْظُرُ مِنْ صَائِرِ الْبَابِ شَقِّ الْبَابِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ نِسَاءَ جَعْفَرٍ وَذَكَرَ بُكَاءَهُنَّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُنَّ، فَذَهَبَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ لَمْ يُطِعْنَهُ، فَقَالَ: انْهَهُنَّ، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ قَالَ: وَاللَّه لَقَدْ غَلَبْنَنَا يَا رَسُولَ اللَّه، فَزَعَمَتْ أَنَّهُ قَالَ: فَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ، فَقُلْتُ: أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ تَتْرُكْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَنَاءِ»[1].

النبي ﷺ وليُّ مَن لا وليَّ له:

ومن أخبار استشهاد الجيش في معركة مؤتة أن النبي ﷺ ذهب إلى بيت جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: ائتوني ببُني أخي، أي أبناء جعفر، فجيء بهم، فدعا الحلاَّق وحلق رؤوسهم، وقال لأمهم وهي تذكر يُتمهم: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة؟!».

*****

(١) البخاري - كتاب الجنائز، حديث رقم ١٢١٦.